بين الاسلام ودارون [1]

آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي

قدس سره

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

منذ قرون، والكفر يجمع قواه، ويهيئ عَدده وعُدده، ويصنع السلاح والعتاد، ليغزو بلاد الإسلام، وينشر سيطرته على المسلمين.

وهذا ـــ بطبيعة الحال ـــ لم يكن بالنسبة إلى الإسلام بما هو هو.. كما لم يكن جديداً بالنسبة إلى الإسلام، بما هو دين ودولة، إذ الإسلام بما هو هو أعلن منذ يومه الأول حربه الشعواء على الأنظمة الفاسدة، وعلى المستغلين والمستعمرين، وعلى المحترفين بالأديان المزيفة، والمتربّعين على آرائك السلطة باسم الله والمعاد. وبما هو دين ودولة، حاربته الأديان، وحاربته الدول، لما لمست فيه من قوة وثّابة آذنت بانهيارهما.

فمنذ اليوم الأول، كان اليهود والمشركون ومن إليهم يشنّون الحروب الحارة والباردة على الإسلام ونبيّه وقرآنه، كما كانت الدول المحيطة بالجزيرة تتابع حروبها على الدولة الإسلامية.

لكن الإسلام صمد أمام كل هذه الاعتداءات بصبر ومثابرة حتى قبض على زمام الدنيا سياسياً واقتصادياً، وثقافياً وخلقياً؛ عقيدةً وسلوكاً.

ورهبت الدول والأمم جانبه، حتى أن الحكام لم يكونوا يفكرون في منازلة المسلمين ومحاربتهم. ومع ذلك كله، تربّصت بالإسلام الدوائر حتى إذا تشتّتت دول المسلمين، واتّخذ كل من رؤسائهم منطقةً يحكم فيها، إذا بالكفر يبرز من خلف الستار ليحارب الإسلام في (الأندلس) باسم النصارى، وفي الشرق الأوسط باسم الصليب، وفي إيران والعراق باسم التتر، وهكذا.

---

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

لكن قوة الإسلام في نفوس المسلمين تمكنت من جمع قلوبهم، وإعادة الإسلام إلى الحياة، ليحكم البلاد في شؤونها العامة والخاصة.

وهذا ما دفع الصليبيين ــ الجدد ــ إلى التفكير ملياً، ما ذا يصنعون؟

وأخيراً: عزموا على انتزاع الإسلام من أدمغة المسلمين، حتى نجحوا في غزو البلاد فكرياً، وأمنوا من قيام الإسلام من جديد، ليطرد الكافرين والمستغلين.

وقد نجحت هذه الخطة أكبر نجاح، بينما غفل كثير من المسلمين عن هذه الخطة المدبرة بليل، ولقد صاح العلماء والمصلحون، وشجبوا انحراف المسلمين العقيدي، ولكن لا حياة لمن تُنادي!

وإذا بالمسلم يتلفّت حوله، فلا يرى من الإسلام إلا اسمه، وهو آخذ إلى الاضمحلال! أما البلاد فهي تُسحق تحت أقدام الاستعمار، ويتلو صائحهم: (خلا لكِ الجو، فبيضي واصفري).

وهذا هو ما حداني إلى أن أُلقي نظرة بسيطة إلى المبادئ المستوردة ــ تمهيداً للسيطرة الصليبية ــ ووضعها على طاولة البحث والتشريح، ليعرف الشباب مدى مطابقتها للمنطق والحقيقة.

ونبدأ بالنظرة (الدارونية) في صورة حوار بين مسلم وداروين؛ والله الموفق.

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي

القسم الأول: مبدأ التطور المزعوم

الحياة

دارون: ما تقول أنت أيها (المسلم) في أصل الكون؟

المسلم: أنا أقول: خلق الكون إله حكيم عليم قدير.. وما تقول أنت يا (دارون) في أصل الكون؟

دارون: أنا أيضاً لا أنكر الإله، كما ترى ذلك في مقدمة كتابي (أصل الأنواع).

المسلم: فهل تعترف بما تقوله الأديان السماوية، من يهودية ونصرانية وإسلام، بالنسبة إلى كيفية خلق الكون؟

دارون: كلا! إني أرى هذه الآراء خرافة، وبصراحة أقول لك: إني أؤمن بالأديان.

المسلم: فكيف إذن تؤمن بالإله؟

دارون: لا منافاة، أؤمن بالإله، ولا أؤمن بالأديان.

المسلم: إذا لم تؤمن بالأديان، فمن أين تعرف ابتداء العالم؟ هل ذلك لأنك كنت حاضراً من أول العالم، أو لدليل آخر؟

دارون: دعني أسألك أولاً: من أين تعرف الأديان ابتداء العالم، فهل موسى وعيسى ومحمد.. كانوا من أول العالم، أم لدليل آخر؟

المسلم: لم يكن هؤلاء الأنبياء العظام من أول العالم، ولكنهم كانوا يُخبرون عن الله ـــ الإله الذي تعترف به ـــ والله كان موجوداً قبل خلق العالم، وهو الذي خلقه. ونحن نصدّقهم في أقوالهم، كما نصدّق كل شخص موثوق إذا أخبرنا بخبر، وإن لم نكن حضرنا بأنفسنا عند وقوع ذلك الخبر.

ولكن.. أنت من أين تعرف ابتداء العالم؟ هل لأنك كنت منذ الأزل، يا (دارون)؟ أم نزل عليك الوحي من الله؟ أم لدليل آخر؟

دارون: بل أنا أقول من دليل آخر.

المسلم: ما هو دليلك؟

دارون: دليلي: نظرية التطور والنشوء والارتقاء.

ولكن قبل ذلك دعني أسألك أيها (المسلم): ماذا يقول الدين بالنسبة إلى بدء العالم؟

المسلم: يقول الدين: إن الله خلق الأرض، وخلق السماء وخلق النجوم الزاهرات، وخلق الشمس والقمر، وخلق النباتات المختلفة، وخلق البحار والأنهار، وخلق الحيوانات المتنوعة، من طيورها وأسماكها وسباعها وغيرها. وخلق الإنسان، وخلق كل شيء بقدرته وعلمه وحكمته.

وما تقول أنت يا دارون؟

دارون: أقول أنا:

إن الحيوانات والنباتات ـــ على تعدد أنواعهما التي تبلغ الآلاف ـــ نشأت في الأصل من نوع واحد، وإن الجماد نفسه، بما فيه من ذرات وجزئيات، وعوالم، وعناصر، يرجع أيضاً إلى أصل واحد.

والإنسان لم يكن إنساناً منذ الأزل، وإنما كان قرداً؛ ثم صار إنساناً.

المسلم: ومن أين تقول ذلك؟ وما دليلك على هذه المواضيع؟

دارون: قادتني التجربة إلى هذا القول.

المسلم: وما هي التجربة التي قادتك إلى هذا الكلام؟

دارون: التجربة هي: الاستقراء وأدلة أخرى.

الاستقراء

إن الإنسان، إذا استقرأ طبقات الأرض، يجد فيها متحجرات النبات والحيوان والإنسان، ومتحجرات كل طبقة تختلف عن متحجرات سائر الطبقات ـــ غالباً ـــ وكلّما كان المتحجر أقرب إلى قشرة الأرض، كان أقرب إلى الكمال، وبالعكس كلما كان المتحجر أبعد عن قشرة الأرض، كان أبعد عن الكمال.

المسلم: وأي ربط لهذا الكلام بالتطور، ومعرفة أصل الأشياء، وكون الإنسان كان قرداً؟

دارون: الآن أقول: الربط وهو:

١ـــ إن الطبقة السفلى من الأرض اشتملت على متحجرات (المحّار)، (الإسفنج)، (المرجان)، (الجنبري)، (السمك)، (حيوان صدفي ذو خلية واحدة) و(نبات الجت).

٢ـــ والطبقة الثانية اشتملت على (الصنوبر)، (النخل)، (الزواحف)، (الطيور)، (الأسماك) و(الحيوانات الكيسية).

٣ـــ والطبقة الثالثة اشتملت على (الثعابين)، (القياطس)، (القردة) و(الأشجار الموجودة الآن).

٤ـــ والطبقة الرابعة اشتملت على (الفيل الأشعر المنقرض)، (ذوات الأربع الصوفية)، (الإنسان) و(جميع الأشجار الحاضرة)

المسلم: ثم ماذا؟

دارون: الآن وصلنا إلى النتيجة.

المسلم: وما هي النتيجة؟

دارون: النتيجة هي أن:

هذا النحو المترتب من المتحجرات يدل على أن الأحياء لم تُخلق كلها مرة واحدة، وإنما تدرّجت، مثلاً: لسنا نجد الإنسان في الطبقة الأولى والثانية والثالثة، ولكنا نجد الإسفنج في جميع الطبقات، ونجد الزواحف سبقت الطيور واللبونات.

١ــ فالإسفنج: أول حيوان متحجر.

٢ــ والزواحف: ثاني حيوان متحجر.

٣ــ والطيور واللبونات: ثالث حيوان متحجر.

٤ــ إلى أن تصل النوبة إلى القرد والإنسان أخيراً.

ثم إن التدرج لم يكن بحيث يُخلق الإسفنج.. ثم يخلق الزاحف وهكذا.. بل الإسفنج تبدل زاحفاً بعد دهور، وهكذا. والدليل على هذا:

إن المتحجر من الحيوان يدلنا على هذا، إذ نجد في بعض متحجّرات الطير أسناناً مثل الزواحف، ونجد في متحجّر الفرس بدل الحافر أصابع، مما يدل على أن الطير كان زاحفاً، ثم صار طائراً مع الأسنان، ثم سقطت أسنانه، والفرس كان زاحفاً، ثم صار فرساً مع الأصابع، ثم سقطت أصابعه لاستغنائه عنها.. وهكذا.

المسلم:

أولاً: من أين تثبت هذه المتحجّرات الطبقية التي زعمتها؟ ومن أين تثبت مدّعاك بأن متحجر كل طبقة متطور من متحجرات الطبقة السابقة؟

ثانيا: نسألك: مَن جعل الحياة في أول خلية من الخلايا؟ وهل وُجدت في الطبقات السفلى خلية المتحجّرات؟ فإن تلميذك (سلامة موسى) يقول: (لسنا نعرف ماهية الحياة الأولى، فربما كانت أبسط من الخلية، ومما يجعل هذا البحث من أصعب الأبحاث، أن طبقات الأرض لا تسعفنا بشواهده).

فمن أين تتمكن يا دارون أن تدّعي أن أول حياة وجدت على الأرض كانت (خلية)، ما دُمت لم تجد لها شاهداً ولو في المتحجرات؟!

ثالثاً: من الأمثلة المشهورة: (عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود)، فإذا لم تجد أنت في طبقات الأرض السفلى إنساناً أو نحوه، فهل يدل ذلك على عدم وجود الإنسان هناك؟ وهل أنت حفرت جميع أطراف الأرض و لم تجد؟

رابعاً: فرضاً أنا حفرنا جميع أطراف الأرض و لم نجد إنساناً ونحوه، فمن الممكن أنه لم تتوفر عوامل التحجر للإنسان هناك، فمن أين لك أن تدّعي أنه لم يكن في الطبقات السفلى إنسان؟

خامساً: لو فرضنا عدم وجود الإنسان ــ إطلاقاً ــ في الطبقات السفلى، فهل هذا التدرّج في المتحجّرات، يدل على التطور الذي زعمت؟ وإذا قال لك قائل: إن الله خلق في الطبقات السفلى إسفنجاً... وهكذا، فما جوابك؟

وهل أن وجود سيارة صغيرة في الطابق الأول من العمارة، وسيارة أكبر في طابق ثان، وسيارة أكبر في طابق ثالث... وهكذا، مع اختلاف الهيئات، يدل على تطور السيارة بنفسها، من دون أن تكون كل سيارة قد صُنعت مستقلة؟

وإذا فرضنا: أن نيويورك خُسف بها، ثم بعد ألف عام جاء شخص وكشف عن عمارة كانت السيارات في طوابق إحدى بناياتها، فهل يحق له أن يقول مثل مقالك؟ وما تجيبه أنت إذا قال هذا المقال؟ وما هو الفرق بين مقالك ومقاله؟

سادساً: وجود طائر ذي أسنان، أو فرس ذي أصابع، لا ربط له بالتطور، وما المانع أن يكون ذلك المتحجر شاذاً في الخلقة، كما وجد في هذا الزمان طائر وإنسان ذو رأسين. ونحوهما من بعض الغرائب.

ثم: من الممكن أن لا يكون ذلك الفرس الذي تحجر ذا أصابع، وإنما عوامل الطبيعة نقشت له أصابع، كما نقشت آثار قدم الطائر وحوله قطرات المطر المتحجرة(١). وقد كانت هناك عوامل حول رجل الفرس جعلته كذات الأصابع.

سابعاً: إنه من الممكن أن يكون الطائر ذي الأسنان قسماً خاصاً من الطير، ولكن انقرض، كما انقرض كثير من الحيوانات، باعترافك يا دارون، ألست تقول بانقراض طيور وزواحف وأسماك؟

فليكن الطائر ذو الأسنان، والفرس ذو الأصابع من هذا القبيل.

ثامناً: لو كانت المتحجرات تدل على التطور، فلماذا لم تتطور هذه الزواحف الموجودة الآن، والطيور الموجودة الآن، والقردة الموجودة الآن.

وهل سُنّة التطور جرت على قسم خاص من الحيوانات فتطورت إلى أرقى، وبقي القسم الآخر جامداً؟ ولماذا هذا الفرق؟

تاسعاً: فرض الخلية الأولى حية، لا يكفي للحياة في ملايين الملايين من الأحياء، فمن أين توجد الحياة في هذه الأحياء؟ أرأيت لو كانت هناك قطعة من الحديد، فهل يكفي ذلك لتعليل وجود ملايين الأطنان من الحديد؟ كلا!

وأخيراً: كل هذه التساؤلات تطرأ على نظريتك يا (دارون)، فما جوابك عنها؟

دارون: أُفكر!

١ ــ انظر نظرية التطور وأصل الإنسان.

بقية الأدلة

المسلم: وهل لك يا دارون أدلة أخرى، تدل على سُنّة التطور التي تقول بها؟

دارون: وهل قبلت دليلي الأول، حتى آتيك بأدلة أخرى؟

المسلم: كلا! لأنه لم يقم عليه برهان منطقي. إن من يدّعي أن الأشياء الحية، ترجع إلى خلية ـــ في الدهور الغابرة ـــ ثم تشعبت منها الحياة، وتطورت إلى أن وصلت إلى الإنسان. ولا يأتي بدليل، لا يتوقع قبول نظريته.

ومثلك في هذا الادّعاء والدليل مثل من يقول:

عِلمُ جميع العلماء ـــ المنتشر في مشارق الأرض ومغاربها ـــ مأخوذ عن علم جرادة، كانت في صحراء أفريقيا.

ثم إذا قيل له: وما دليلك على وجود تلك الجرادة؟ أجاب: لا دليل لدي على وجودها!

فهل يتوقع مثل هذا المدّعي أن يقبل الناس كلامه؟

هذا مع غض النظر عن أن بقية دليلك الذي يحاول أن يثبت التطور من الحفريات، قد وردت عليه إشكالات وأسئلة، لم تتمكن من دفعها والإجابة عليها.

دارون: نعم، وعدتك بالتفكّر في الإجابة عليها!

المسلم: تفكّر ألف سنة، وأجب!

لكن.. هل لك أدلة أخرى على التطور، أم كان دليلك الوحيد هو ما ذكرته أولاً؟

دارون: نعم! لي أدلة أخرى.

المسلم: ما هي الأدلة الأخرى؟

دارون:

١ـــ التشابه الموجود بين كثير من المخلوقات.

٢ـــ تطور النوع الواحد من الحيوانات والنباتات والإنسان بواسطة المحيط.

٣ـــ الردّة، بمعنى رجوع بعض الأشياء إلى أُصولها.

٤ـــ الزوائد الأثرية التي بقيت في كثير من الأشياء الراقية.

٥ـــ تنازع البقاء.

٦ـــ انتخاب الأصلح.

المسلم: من فضلك! اشرح لي هذه الأدلة.

التشابه

دارون: إنا نرى التشابه التام بين الإنسان والقرد ـــ مثلاً ـــ ومن ذلك نجزم، بأن الإنسان كان في الأصل قرداً ثم صار إنساناً بعوامل البيئة ونحوها.

وهكذا بالنسبة إلى بعض الطيور، والحيوانات اللبونة وغيرها.

المسلم:

أولاً: إن التشابه لا يستلزم أن يكون أحد المتشابهين أصلاً والآخر فرعاً. فلو كان إنسان يشبه إنساناً أو طير يشبه طيراً، فهل يدل ذلك على أن أحدهما أصل، والآخر فرع؟ كلا! إنه دليل غير واقعي.

ثانياً: من أين تقول أن القرد هو الإنسان؟ ولماذا لا يكون العكس بأن يكون الإنسان أصل القرد؟ فكان القرد في أول خلقته إنساناً، ثم انقلب قرداً بعوامل البيئة ونحوها، وما دليلك على ردّ هذا الكلام؟

وإن قلت: إنه لا يمكن، لأن الطبيعة تُبقي الأصلح، وتُفني غيره. قلنا: من أين تقول بذلك؟ وهل للطبيعة علم به، تعلم أن الأصلح لا بد من بقائه؟

ولو قلت: جرّبنا ذلك، قلنا: ما هي التجربة التي تدّعيها؟

ثالثاً: إذا كان القرد أصل الإنسان، فكيف صار نوع من القرد إنساناً وبقي النوع الثاني قرداً إلى هذا اليوم؟

دارون: أُفكر!

المسلم: إذن بطل دليلك هذا، فاشرح الدليل الثاني.

التطور

دارون: الدليل الثاني، التطور: الذي يحصل في كثير من أنواع الحيوانات، فإنا نرى الإنسان إذا ولد في المناخ البارد صار أبيضاً، وهكذا بالنسبة إلى الحيوان، فنوع واحد من الحيوان له في كل بيئة حالة خاصة وشكل خاص وعادات خاصة، وكذا بالنسبة إلى النبات. وإذا تحقق ذلك لم نجد فرقاً بين التطور العرضي، باختلاف لون وحجم وعادة حيوان واحد ـــ بسبب اختلاف المناخ ونحوه ـــ وبين التطور الطولي، بسبب انقلاب الخلية نباتاً، والنبات حيواناً، والحيوان إنساناً.

المسلم: استدلالك عجيب جداً، فإن هناك أمرين:

١ـــ أن يختلف الحيوان الواحد أو النبات الواحد أو الإنسان الواحد حسب اختلاف البيئة والمناخ، اختلافاً يسيراً، مع دخول جميع الأفراد تحت نوعية واحدة، كأن يكون إنساناً لكن هذا أسود، وذاك أحمر، وذاك أصفر.

أو يكون جميع آحاده دباً، لكن جميع أفراد دبّ القطب لها صفات معينة. ودبّ المناطق الحارة له صفات أُخرى.

أو يكون جميع آحاده قمحاً، فللقمح العراقي مميزاته، وللقمح الإسترالي مميزاته.

٢ـــ أن يختلف الشيء الواحد، حسب اختلاف البيئة، اختلافاً جوهرياً، كأن يكون هذا قرداً، وذاك إنساناً، وذلك نباتاً، مع كون الجميع من أصل واحد.

والذي نشاهده ويعلمه الجميع هو القسم الأول.

أما القسم الثاني فما دليلك عليه؟

وهذا مثل أن تقول:

إن الطين كما يمكن أن يُصنع منه الآجر والخزف واللبن، كذلك يمكن أن يُصنع منه الحديد والعاج والماء.

فهل يمكن هذا القياس؟

دارون: أُفكر!

المسلم: إذن بطل دليلك الثاني، فما هو الدليل الثالث؟

الردة

دارون: دليلي الثالث هو الردّة، ومعناها: إنّا نرى بعض الأشياء ترجع إلى أُصولها، فلو لم يكن الأصل ذلك لم يرجع الفرع ـــ في بعض الأحيان ـــ إليه.

من ذلك أنه ولد مولود في الهند، فكان له ذَنَب.

وربما يولد الإنسان وله شعر كشعر الحيوان.

أو له رأس صغير كرأس الحيوان(١).

المسلم:

أولاً: لا معنى للردّة إطلاقاً، إذ الإنسان ذو الذنَب ـــ على فرض صدق المقال ـــ له شيء زائد بعوامل رحِمية أو منوية... أما أن يكون ذلك لأن أصل الإنسان كان مذنَّباً حين كان قرداً، فكلام خالٍ عن الدليل.

وثانياً: ربما يولد الإنسان وله جهاز تناسلي ذكري أو أُنثوي، أو له رأسان، أو ما أشبه ذلك، فهل من الصحيح أن يقول أحد هذه ردّة، وقد كان لأصل الإنسان فرجان، أو رأسان؟!

وثالثاً: كيف تستدل بذنَب لطفلٍ، على أن أصل الإنسان كان مذنَّباً، ولا تستدل بملايين الأطفال الذين لا ذنَب لهم على أن أصل الإنسان لم يكن ذا ذنَب؟

وهكذا قل بالنسبة إلى الإنسان ذي الشعر، أو ذي رأس صغير.

دارون: أُفكر!

المسلم: إذن بطل دليلك هذا، فاشرح الرابع.

الزوائد الأثرية

دارون: ودليلي الرابع أنه يوجد في الإنسان وغيره زوائد تدل على القرابة بين الأصل والفرع، مثلاً: المَعِيّ القصير المسمى بالزائدة الدودية، كانت مفيدة للإنسان حينما كان حيواناً يرعى الأعشاب، وهذا العضو كبير مستطيل في الحيوانات التي ترعى الأعشاب، وهو يفيدها في إحالة المادة الخشبية (السليلوزية) في هذه الأعشاب إلى سكر تهضمه أمعاؤها، وقد كانت زائدتنا الدودية تؤدي لنا الوظيفة ذاتها عندما كنا نرعى الأعشاب مثل سائر البهائم، أما الآن حيث تغير طعامنا فقد ضمرت وضعفت عن مقاومة الأمراض.

وهكذا بعض الأشياء الأُخرى.

المسلم:

١ـــ من أين علمت أنه ليس في المعي الأعور فائدة أُخرى؟

دارون: لأن الطب مع هذا التقدم المدهش لم يعرف له فائدة.

المسلم: وهل بلغ الطب مداه في يومنا هذا، أم يرجو تقدّماً ورقياً؟

دارون: كلا! إن الطب مع ما أحرز من انتصارات باهرة في ميادين التشريح والعلاج وما إليها... يعترف بأن هناك مجهولات جمة لم يكتشفها إلى الآن، ويرجو أن يكتشفها في المستقبل.

المسلم: إذن، فليس لك أن تدّعي أن الزائدة الدوديّة لا فائدة فيها، فلعل فيها فوائد عظيمة تُكتشف في المستقبل.

وقولك هذا مثل أن يرى شخص ساعة، ثم يعرف جميع آلاتها وأجهزتها ولا يعرف فائدة آلة وحكمتها، ثم لا يرعوي أن ينسب هذه الآلة إلى الزيادة والبطالة.

والذي تقوله لهذا الشخص بالنسبة إلى الآلة المجهولة في الساعة، نقوله لك في الزائدة الدودية، والتي لم يعرف الطب بعد فائدتها. فما جوابك؟

٢ــ وبالفعل، كشف الطب فائدة الزائدة الدودية، لكنك لا تعلم ذلك، فاسأل المتضلّعين المهرة من الأطباء.

٣ــ من أين لك أن تثبت أن الإنسان كان في الأصل حيواناً ثم ضمرت زائدته، لعدم فائدة فيها... ولقائل أن يقول بالعكس. وأن الحيوان كان في الأصل إنساناً، فلما انقلب حيواناً طالت زائدته بهذا الشكل الموجود في الحيوان لتتناسب مع حالته الجديدة؟

دارون: أُفكر!

المسلم: إذن بطل دليلك الرابع، فاشرح الدليل الخامس.

تنازع البقاء

دارون: إن تنازع البقاء له معنيان:

١ــ أن ينقلب النوع الرديء من النبات والحيوان والإنسان، إلى نوع أفضل، وهكذا. وذلك لحفظ الأفضل، فمثلاً:

القرد والإنسان يتنازعان في البقاء، فالقرد يريد حفظ قرديّته لكن البيئة تريد إيجاد الإنسان، وهناك يقع نزاع في الطبيعة بين هذين النوعين، وحيث إن الإنسان أفضل لذلك يتغلب على القرد وينتصر عليه، فينقلب القرد إنساناً، وذلك شيء واضح وله أمثلة في الطبيعة ملموسة.

فالإنسان الأبيض، إذا سكن المناطق الحارة، تنازع فيه عاملان، عامل البيئة التي تريد له السواد، وعامل أصله البياض، لكن عامل البيئة أهم، ولذا ينقلب ــ نوعاً ما ــ لونه عن البياض إلى السواد.

ثم بعد ذلك، يكون ولد هذا الإنسان الأبيض، أقرب إلى السواد منه إلى البياض وهكذا، حتى ينقرض اللون الأبيض من نسل هذا الإنسان، فينقلب حفيده، أو حفيد حفيده أسوداً كسائر أفراد تلك المنطقة.

٢ــ أن يتنازع النوعان من حيوانين، أو الصنفان من حيوان واحد في البقاء، فيبقى النوع الأقوى، ويهرب النوع الأضعف أو ينقرض بتاتاً.

فمن الأول: ما نراه من الصراع الهائل بين الأحياء عندما نرى الوسائل التي يتخذها بعضها للعيش على ما فيها، ومن مباينة الوسط لها.

فالسرطان، وهو حيوان بحري ضعيف، قد اضطره تنازع البقاء إلى ترك البحر والصعود إلى قمم الجبال، وإلى تسلق الأشجار.

والزواحف اضطرت إلى الطيران في الهواء!

بل اللبونات كالخفاش، اضطرت إلى الطيران... وبعض الأسماك نزلت إلى قعر البحر على عمق خمس كيلومترات.

ومن الثاني: ما نشاهده من أن الأقوى من الحيوان والإنسان يزاحم الأضعف، حتى يهرب منه إلى ساحات العدم. وهكذا إذا وقع مرض أو عرَض فإنه يشمل الضعفاء، أما الأقوياء فينجون منه.

أليس ذلك دليلاً على التطور، وتخلية الأدون والأضعف مكانه للأقوى والأحسن؟!

المسلم: هذا الدليل مما يوجب الرثاء، أكثر منه مما يوجب الضحك، فإنه أتفه من أن ينطق به إنسان... اللهم إلا إذا كان جده قرداً، كما تقوله يا دارون!

١ــ أما تنازع البقاء بين الأنواع المتباينة من الإنسان والحيوان والنبات، فأي دليل لك عليه؟ والتشبيه بالإنسان الأبيض الساكن في أفريقيا، غلط في القياس... فمن الواضح الفرق بين تبدّل لون الإنسان إلى لون آخر بعوامل البيئة، وبين تبدّل حيوان إلى إنسان... والذي نشاهده هو الأول، لا الثاني.

وكلامك هذا مثل أن يقول شخص: هل رأيت الجص أو الآجر والحديد، يصنع منها الدار..؟ فالكواكب المنيرة أيضاً كانت من هذه المواد.. فكما أن هذه المواد تنقلب بناءاً وداراً، كذلك انقلبت هذه المواد كواكبَ وطارت في السماء، كما نرى!

٢ــ وأما كون السرطان كان مائياً.. والطيور زواحفَ، والخفاش لبوناً أرضياً.. ثم ضاقت بهم الأرض أو الماء، فكلام يحتاج إلى دليل أكثر من سابقه.

أولاً: من أين لك هذا؟

ثانياً: لنا أن نتساءل: كيف ضاقت الأرض بالخفاش، و لم تضق بالفيل؟ وإن قلت: لأن الخفاش أصغر والفيل أكبر، ولذا طرد الفيل الخفاش! قلنا: فلم لم تضق الأرض بالخنفساء الذي هو أصغر من الخفاش؟

ثالثاً: على فرض تمامية هذا الكلام، فإنه إنما يصح بالنسبة إلى الحيوانات التي تتزاحم بعضها مع بعض، أما الخفاش الصحراوي الذي لا يزاحمه حيوان، فكيف ترك وطنه الأصلي (الأرض) وطار إلى السماء؟

رابعاً: أية مزاحمة بين الخفاش وبين سائر الحيوانات حتى يضطر هذا الحيوان إلى ترك وطنه؟

وهكذا قل في سائر الأمثلة!

٣ــ وأما فرار الأضعف إلى ساحات العدم، فهذا مما لا يصدقه الوجدان ولا العلم، فإن الأمراض تجتاح الحيوانات الكبيرة والقوية على حد اجتياحها للحيوانات الصغيرة والضعيفة.

ثم لو كان ذلك ــ كما قلت ــ فالسبب أن المقاومة في الأقوى أشد ولذا يبقى، أما الأضعف فيضعف عن المقاومة، ولذا يفنى..

وأي ربط لهذا الكلام بتنازع البقاء ـــ المزعوم ـــ؟

دارون: أفكر!

المسلم: فكر ألف سنة!! وهات الجواب.

وإذا بطل هذا الدليل، فما هو شرح دليلك السادس؟

انتخاب الأصلح

دارون: الطبيعة جبلت على انتخاب الأصلح من الأشياء، فهي كالطير الذي يلتقط الأجود من الحب ويترك الرديء، فالطبيعة تُبقي الأفضل من الأنواع، نباتاً كان أم حيواناً أم إنساناً، وتُعدم المفضول، وهذا هو سبب انقلاب الخلية الأولى إلى النبات، ثم ترقّى النبات حتى وصل إلى أبسط حيوان، ثم ترقّى ذلك الحيوان إلى أن وصل إلى القرد، ثم ترقّى القرد إلى أن وصل إلى الإنسان.

وإنا لنتنبأ بأن الإنسان أيضاً لا يبقى على هذه الحالة، بل يترقّى حتى يصل إلى إنسان المستقبل، وهو ـــ أي الإنسان في المستقبل ـــ كما ترون، يقول تلميذي (سلامة موسى): يكون بهذه الصفات:

ضخامة الرأس، زيادة في قوة النظر وحدته، ضعف أو زوال الحواس الأخرى، مطاطية الجسم وتكتله، قوّة الفقرات، زوال أصابع القدمين، صِغر الفكين وزوال بعض الأسنان، اتساع حوض المرأة وازدياد كِفليها، ضمور البطن وزوال المعدة والقولون. زوال شعر الجسم كله حتى الرأس، قِصر القامة، تبدّل اللغة عن المنطوق إلى غيره.

المسلم: ثم ماذا يا دارون؟

دارون: ثم لا نعلم كيف يكون الإنسان بعد هذا الإنسان المستقبل.

المسلم: قد كنت ابتدأت بـــ(لا نعلم) لأنك لم تعلم من أين وُجدت الحياة على ظهر الأرض. وانتهيت إلى (لا تعلم) لأنك تقول لا نعلم بعد هذا الإنسان (المزعوم) في المستقبل، كيف يكون الإنسان؟!

ثم تقول: كل هذا علم، كل هذا تجربة!!

ولقد صدق من قال:

إن من يُنكر الدين لا بد وأن يُخطئ ألف مرة ومرة.

إنك كنت تقول: لا أؤمن بالغيبيات الماضية ولا الغيبيات المستقبلة، فكيف آمنت بالخلية ثم انقلابها نباتاً، ثم حيواناً، ثم إنساناً، أكان كل ذلك شهوداً وتجربةً وحساً؟ أم خيالاتٍ وأوهاماً؟!

ثم آمنت بالإنسان المستقبل المزعوم! أكان ذلك تجربة وحساً؟!

وعلى أي حال، نرجع إلى أصل الكلام ونقول:

ما هو دليلك يا دارون على انتخاب الطبيعة للأصلح؟

دارون: دليلي واضح مما ذكرت.

فإن الحفريات، والزوائد الأثرية، وتنازع البقاء، والردّة، وغيرها من الأدلة السابقة تدل على انتخاب الطبيعة للأصلح.

المسلم:

أولاً: أبطلنا أدلتك السابقة، فلا يصح قولك هذا.

ثانياً: لو كانت الطبيعة تنتخب الأصلح، فلماذا بقيت النباتات والحيوانات البدائية؟ ولماذا بقيت القرود؟ ولِمَ لم تبدّلها الطبيعة إلى الأفضل؟

ثالثاً: لماذا لا ترى غير الأصلح يسطو على الأصلح فيعدمه، كما يفترس الأسد الإنسان، والحيوانات السامة كالعقرب والحية تلدغ الإنسان أو الحيوان الأفضل فتقتله؟ والجراثيم (الميكروبات) تفتك بالإنسان الذي هو أصلح؟

رابعاً: لماذا تنتكس الأشياء التي هي أصلح، إلى أشياء غير أصلح، كما يضعف الإنسان ثم يموت ثم يصير تراباً. وهكذا في النبات والحيوان؟

خامساً: لماذا توجد في الحفريات حيوانات بائدة، هي من أعلى صفوف الحيوان، في كبر الجثة وإتقان البنية، كما يذكره العلامة البلاغي في (الرحلة):

فمن ذلك: (البرونتوزورس) ويقدر طوله بخمسة عشر متراً.

ومنه: (الديبلودوكس) ويقدر طوله ببضعة عشر متراً، وعلوه بخمسة أمتار.

ومنه: (مثلث القرن) من ذوات الأربع، من نحو فرس البحر، وقدروا طوله بثمانية أمتار، وعلوه بمناسبته في ذوات الأربع.

ومنه: (الميلودون) وهو عظيم الجثة هائل، قدروه بأنه يأخذ النخلة الكبيرة فيميلها إليه.

ومنه: (الكسلان) وهو قريب من (الميلودون).

ومنه: (الموا) في زيلاندا، وهو طير قدروا علوه بنحو أربعة أمتار وأكثر.

ومنه: (دينوسور) زحّاف مجنّح عظيم هائل.

ومنه: (دينوسور) زحّاف كبير قدروا طوله بعشرة أمتار، وعلوه من قمة رأسه إلى إبهام رجله نحو خمسة أمتار.

فلماذا لم تنتخب الطبيعة هذه الحيوانات، وانتخبت الخنفساء والنمل والبرغش وما أشبهها؟

سادساً: ما هي الطبيعة التي تنتخب؟

إذا كانت هي ذات عقل وإدراك وشعور، فما هي؟

وإذا كانت بلا عقل ولا إدراك، فكيف تنتخب؟

أرأيت لو قال أحد: (قد انتخب هذه الحديدة تلك الآجرة قرينة لها)، كان ذلك مثار ضحكٍ واستهزاء؟

فكيف يمكن أن تنسب إلى الطبيعة مثل هذا الانتخاب (المزعوم)، الذي يقع أفضل من انتخاب قاطبة العلماء والحكماء والفلاسفة أصحاب العلم والإدراك والتجربة؟!

دارون: أُفكر!

المسلم: فكر..

ولكن هل لك أدلة أُخرى؟

دارون: لا، ليست لي أدلة غيرها.

١ ــ انظر نظرية التطور.

القسم الثاني: لواحق النظرية المختلفة

خمسة آراء في التطور

المسلم: وهل لك يا دارون نظريات أُخرى حول الكون والحياة؟

دارون: نعم، لي نظريات أُخرى.

المسلم: نظريات مستقلة، أم تابعة لنظرية التطور؟

دارون: طبعاً تابعة لنظرية التطور.

المسلم: وإذا أبطلنا نظرية التطور ـــ في القسم الأول من الكتاب ـــ بطل جميع فروعها، لأنه لا يبقى الفرع مع ذهاب الأصل.

دارون: إني وعدت بالتفكير في مناقشاتك حول النظرية.

المسلم: فما هي تلك الفروع لنظرية التطور المختلفة؟

دارون: الفروع:

١ـــ نشأة المجتمع.

٢ـــ الدين.

٣ـــ اللغة.

٤ـــ الأخلاق.

٥ـــ الحضارة.. بفروعها.

نشأة المجتمع

المسلم: ماذا تقول بنشأة المجتمع؟

دارون: أنت ماذا تقول أيها المسلم؟

المسلم: أنا أقول:

إن الله خلق آدم وحواء (عليهما السلام)، وعلمهما فنون العلم، من الزراعة والصناعة والبناء وغيرها، ثم ولدا وتكاثر نسلهما، وكانوا يعملون بهَدي الله ووحيه.

فالمجتمع الآن هو المجتمع بعد خلق آدم وحواء، مع فروق الأساليب لا في العناصر الكيانية للمجتمع.

دارون: ومن أين تقول ذلك؟

المسلم: لأن الأنبياء أخبروا بذلك، بواسطة الوحي من الله.

ولكن أنت يا دارون، ما تقول في نشأة المجتمع؟

دارون: أنا أقول:

تكون المجتمع من العائلة، وتكونت العائلة بهذه الكيفية:

إن الرجل لم يكن مرتبطاً بالعائلة، وإنما كان يقضي شهوته بالاقتراب من النساء.. دون أن يعرفا أن هذا العمل هو سبب تكوّن الأولاد.

فإذا وُضع الطفل كانت له علاقة بأُمه.

ثم إذا وضعت ولداً آخر، وُجدت بين الولدين والأم علاقة.

وهكذا ضل الحال على هذا المنوال أكثر من مئات الأُلوف من السنين.

و لم يكن يعرف البشر الزراعة.

بل كان يأكل حشيش الأرض، ويصطاد بعض الحيوانات لسد جوعته.

ثم عرف البشر الزراعة.

وعندئذ، تعاون الأم والأب في الزراعة.

وحينئذ حصلت الارتباطات بين الأب والأم من ناحية.

وبين الأب والأولاد من ناحية أخرى.

بعدما كانت الارتباطات بين الأم والأولاد فقط.

وبارتقاء الإنسان رويداً رويداً، أخذ يحتفظ بالروابط العائلية حتى اتسعت إلى روابط القبيلة والأُمة.

وهذا هو منشأ تكون المجتمع في نظريتي (النظرية الدارونية).

المسلم: ومن أين تقول بهذه الكيفية؟

هل لأنك صاحبت أدوار الإنسان الأول، وخصوصاً قبل مئات الأُلوف من السنين؟

أم لأنه نزل عليك من السماء وحي بذلك؟

أم لأنك أخذت هذه النظرية من الأنبياء؟

أم لدليل علمي؟

دارون: كلا.

لم أصاحب الإنسان في أدواره الأولى.

ولا نزل عليّ وحي من السماء، بل إني أنكر الوحي.

ولا أخبرني الأنبياء بذلك، بل إني أنكر الأنبياء.

وإنما أقول بهذه النظرية لدليل علمي.

المسلم: ما هو الدليل العلمي؟!

دارون: الدليل العلمي هو:

أولاً: إنا نرى بعض القبائل تعيش كذلك مرتبطة بالأُم، كقبائل جزيرة (تروبرياند) من جزر البحر الجنوبي، بين استراليا وآسيا.

ثانياً: إنا نرى كثيراً من القبائل تنتسب إلى الأُم.

ثالثاً: نقرأ في التاريخ: إن عدّة رجال كانوا ينكحون امرأةً واحدة.

رابعاً: إنا نرى أن كلمة (الحياة) مشتقة من (الحيا) وهو فرج المرأة، وأن (الحماة) وهي قرابة المرأة مأخوذة من (الاحتماء)، مما يبيّن أن المرأة كانت محور الحياة، وأن الاحتماء كان يحصل بها دون الزوج(١).

المسلم: إن هذه الأدلة، تافهة جداً يا دارون، وإني أرباً بك أن تنكر الأديان والأنبياء والكتب السماوية، التي قام عليها ألف دليل ودليل وتدعي العلم والفلسفة، ثم تأتي بهذه الأدلة التافهة!!

وهذا الدليل لهذه النظرية أشبه شيء بأن يقول قائل:

أن نخل التمر كان في البدء منخلاً... ولِمَ؟

لأن بعض عرجون النخيل يشبه في الانحناء استدارة المنخل! ولأن كثيراً من البساتين الحافلة بالنخيل توجد فيها المناخل! ولأن كلمة (النخيل والمنخل) من مادة واحدة!

وكم ترى سخافة هذا الدليل؟!

إن دليلك في نشأة المجتمع مِثْله إن لم يكن أسخف منه.

وبعد:

١ ــ إن كون بعض القبائل تعيش مرتبطة بالأُم ــ على فرض صحته ــ منقوض بأن معظم أهل العالم يعيشون مرتبطين بالأب، فهل ذلك النادر دليل، وهذا الشائع ليس بدليل؟ وهذا شبيه بأن يقال: إن الإنسان في أصل خَلقه كان ذا أصابع ستة، بدليل أنه يوجد أفراد هكذا!

٢ ــ وهل رأيت انتساب القبائل إلى الأم.. ولم تر انتسابها إلى الأب؟

فالقرشيون والأمويون والهاشميون والتميميون والبكريون وغيرهم وغيرهم؛ ليس دليلاً لشيء؛ وإنما ذلك النادر دليل!

اللهم إلا أن تخترع يا دارون لذلك اختراعاً، فتقول:

قريش، وأُمية، وتميم، كانوا نساءً، وليس ببعيد من ذهنك الوقاد!

٣ــ وكما أن عدّة رجال كانوا ينكحون امرأةً واحدة، كذلك كان رجل واحد ينكح عدّة نساءٍ.. فماذا؟

٤ــ ولم يكن العرب أول إنسان، أو قبيلة؛ حتى تدل ألفاظهم على شيء، فهل في سائر اللغات من هذا أثر؟

وما أشبه هذا الاستدلال، بمن يقول:

إن الأسد الضاري، كان قبل آلاف من السنين، سداً لأحد الأنهار ثم انقلب حيواناً، ويستدل لذلك بأن (الأسد) مشتق من (السَدّ).

فماذا تقول يا دارون؟

دارون: أُفكر!

المسلم: فكر، وهل لك دليل آخر؟

دارون: ما ذكرت هي معظم أدلتي وأهمها.

١ ــ وهذا رأي بعض أتباع دارون.

الدين

المسلم: وهل لك نظرية حول الدين؟

دارون: نعم نظرية مهمة جداً.

المسلم: وما هي؟

دارون: اجتاز الإنسان مراحل بالنسبة إلى الدين، وهي:

١ ــ الأفكار.

٢ ــ السحر والكهانة.

٣ ــ الوثنية.

٤ ــ التوحيد.

٥ ــ العلم.

المسلم: اشرح، من فضلك!!

دارون: نعم:

١ ــ الإنسان القديم، كان كل همه بطنه وفرجه، لا يعرف شيئاً غيرهما، كسائر أفراد القرد، ثم عرف الزراعة، وأُمّنت له زوجته بعد مئات الآلاف من السنين، فأخذ يتأمل في السماء والأرض ما هما؟ ومن هنا نشأت الأفكار.

٢ ــ ثم أخذ يفكر في الموت:

فإن الموت الطبيعي لم يكن من مألوف الإنسان، وكان أكثر ما يرى الموت عند القتل، أو التردّي، أو الغرق، فيعرف عندئذ سببه، أما أن الموت يحصل بلا سبب، فهذا ما لم يكن يعقله، لذلك صار يعتقد: أن الإنسان عندما يموت وحده بشيخوخة أو مرض، إنما يحدث له هذا الموت بفعل إنسان بعيد عنه أراد له المرض أو الموت، ونجح في تحقيق إرادته بطرق خفية، خارجة عن نطاق مداركه، ومن هنا نشأ السحر.

٣ ــ ثم أن الإنسان رأى بعض الأشخاص يُغمى عليهم، ثم يفيقون، ورأى في الرؤيا أن بعض الأموات يُكلّمونه، فاعتقد أن الإنسان ليس نهايته الموت، لما رأى من حياة الإنسان بعد موته ظناً منه في حالة

(الإغماء)، ولما رأى في (الرؤيا)، ومن هنا نشأ الاعتقاد بالآخرة، ونشأ إلى جنبه احترام الجثة، واحترام الجثة جرّ إلى عبادة الأصنام، لأنهم كانوا ينحتون شبيه الميت ــ إذا كان عظيماً ــ ويعبدونه، أي يحترمونه. ومن هنا نشأت الوثنية.

٤ ــ وحيث إن بعض الأمم لم تكن تعرف صناعة التماثيل والأصنام، وأرادت اللحوق بجيرانها من حيث احترام الآلهة، اخترعت لنفسها إلهاً واحداً.

٥ ــ ثم جاء العلم وأبطل الجميع.

المسلم: وأي علم هذا الذي أبطل الجميع؟ هل هو علمك، وعلم أمثالك، الذي كان كله كلاماً؟!

ما دليلك على هذه النظرية الطويلة العريضة العميقة؟

دارون: هكذا قادتني فكرتي، ولا دليل لي على ذلك.

المسلم: أولاً:

من أين تُثبت أن الإنسان الأول كان كما زعمت؟ فإن الأديان تقول: إن الإنسان الأول كان نبياً من الأنبياء، وهو آدم (عليه السلام).

وما دليلك على ردّ هذا القول؟

ومن أين لك هذه الفلسفة (المزعومة) بالنسبة إلى الموت، في المرحلة الثانية التي زعمت أنها منشأ السحر والكهانة؟

ومن أين تُثبت أن الإنسان رأى من يُغمى عليه، ورأى الميت في المنام، ثم تنبأ بما ذكرت في المرحلة الثالثة التي زعمت أنها منشأ الوثنية؟

ومن أين تقول أن بعض الأمم لم تكن تعرف صنعة التماثيل في المرحلة الرابعة التي زعمت أنها منشأ الإله الواحد؟ ثم أليست البلاد العربية كانت تعرف صنع التماثيل؟ فلماذا آمنت بإلهٍ واحد؟

ثم كيف تدّعي أن العلم أبطل الكل؟

إنه بالعكس أثبت الوحدانية، التي كانت هي المرحلة الأولى والثانية والأخيرة، لو فرض هناك مراحل على زعمك.

إن العلم.. بالعكس، أبطل كلامك الذي يدل على قلّة ثقافتك، التي تدل على أنك لم تطّلع حتى على كتاب واحدٍ عن الإسلام. ودعنا عن سائر الأديان.

إن مثلك ومثل القائلين بالإله الواحد:

مثل رجلين اصطحبا، أحدهما مؤمن والآخر ملحد.

فمرّا أثناء سفرهم بحديقة غنّاء ذات أطيارٍ جميلة، وأزهارٍ نظرة، وأشجارٍ مثمرة، وأنهارٍ جارية، تحتفّ بقصر فخم مؤثث بأحسن الرياش، وأجمل الأثاث، فيه مكتبة تحوي أُلوف الكتب في العلوم المختلفة، ومكيفات هواءٍ، وفرشٍ ثمينة.

فقال المؤمن: هذه الحديقة بمحتوياتها من صنع مهندس قدير، وصنوف مختلفة من مهرة الصناعيين والفلاحين.

وقال الملحد: كلا! لم ترهم عيني، وإني لا أؤمن إلا بالمحسوس.

فقال المؤمن: فمَن صنع هذه الأشياء كلها؟

قال الملحد ـــ بعد تفكير طويل ـــ :

نقلت الرياح الأحجار من جبل هناك على بعد ثلاثة أميال، ونحتتها بمرور الأزمنة، حتى صار هذا القصر.

ونقلت الأشجار من غابة هناك على بعد أربعة فراسخ، وغرستها بطول الأزمنة حتى صارت الحديقة!

ونقلت بعض جذاذ الصوف من أغنام راعٍ كان يمرّ بالقرب، ثم حلجتها الرياح بضربها بالجدران والأراضي، ونسجتها وصنعت منه الفرش بمرور الأزمنة!!

ونقلت كمية من القطن، ثم صنعتها أوراقاً، ثم كتبت عليها بمرور الأزمنة، حتى صارت المكتبة!

ونقلت، ونقلت، وفعلت، وفعلت.

إلى أن اكتمل القصر بما فيه، كما ترى.

قال المؤمن: دعنا عن كل هذا الهذيان، فأنت الذي لا تؤمن إلا بالحس.

هل شاهدت ما ذكرت؟

قال الملحد: لا، لم أشاهد، ولكنها نظرية.

قل المؤمن: فكيف تقول بما لم تشاهد؟

فانقطع الملحد، و لم يحر جواباً!

وأنت يا دارون، هل شاهدت ما ذكرت من ترتيب مراحل تطور الدين؟

دارون: لا، لم أشاهد، ولكنها نظرية.

المسلم: وهل ذلك دليل على ذلك؟

دارون: لا.

المسلم: فكيف تقول إذن بهذا الكلام الذي هو إلى هذيان المصروعين، أشبه منه بكلام الأصحاء؟

دارون: أُفكر!

اللغة

المسلم: وهل لك فلسفة في اللغة، أيها الأستاذ الكبير؟

دارون: أنا أرتأي في اللغة مذهباً جديداً، يناسب مذهبي في التطور.

المسلم: وما هو المذهب الجديد؟

دارون: كان الإنسان بعدما تطور عن القرد، لا يعرف إلا الكلمات القلائل التي كان يستعملها وهو قرد، ويتممها ببعض الإشارات.

ثم زاد عليها ألفاظاً حاكية؛ كالأصوات المشابهة لخرير المياه، واصطكاك الأسنان، وصرير الباب، وحفيف الأوراق، وأصوات بعض الحيوانات؛ كعواء الذئب، ونبح الكلب، وهكذا.

ثم لّما كانت النساء تجتمع في الليالي حول النار للسمر، و لم تكن الإشارة تُرى في الليل، اضطررن إلى تبديل الإشارة بغيرها من الألفاظ المسموعة.

ثم رويداً رويداً حدث الكلام.

المسلم: من أين تقول هذا؟

دارون: لي شواهد.

المسلم: وما هي الشواهد؟

من الشواهد: إن الإنسان والقرد يشتركان في استعمال لفظة (كخ) التي تقال لزجر الطفل.

ومن الشواهد: اشتراك غالب اللغات في لفظة (با) و(ما) التي يقولهما الطفل في عامه الأول.

ومن الشواهد: إن إشارة النفي بتحريك الرأس إلى الأعلى، وإشارة السكوت بوضع الإصبع على الأنف عامة تقريباً.

ومن الشواهد: إن بعض اللغات كالعربية، نرى فيها ألفاظاً كثيرةً مشتقةً من أصل واحد، مثل: (كل) و(جل) و(جبل) و(جمل) و(لج) و(جلل)، مما يدل على أن اللفظ بدأ قليلاً، ثم تطور منه الاشتقاق.

المسلم: ما أشبه استدلالك على تطور اللغة بهذه الأمور، باستدلال من أراد أن يثبت خلافة أحد الخلفاء، فقال للمنكر:

أليس (ضرب) فعل ماضي؟ فقال المنكر: بلى. قال:

أليس (يضرب) فعل مضارع؟ فقال المنكر: بلى. قال:

إذن، فقد ثبتت خلافة الخليفة!

فأي ربط بين اشتراك جملة من الألفاظ والإشارات في اللغات، أو اشتقاق بعضها من بعض... وبين تطور اللغة المزعوم؟

دارون: أُفكر.

المسلم: فكّر.

الأخلاق

المسلم: أفدنا ـــ يا دارون، عافاك الله ـــ بباقي معلوماتك الجليلة، فإنا متعطشون إلى مناهل ثقافتك المترعة!

فما ترى في منشأ تولد (الأخلاق)، وكيف تطورت إلى ما نراه اليوم؟

دارون: دعني عن المزاح، فإني أتكلم عن الحقائق لا عن الأوهام، وعن ما قادتني التجربة والعلم إليه، لا عن ما قاله الأنبياء والمصلحون.

المسلم: تفضل، وبيّن كيفية نشأة الأخلاق؟

دارون: لا بد لنا من ذكر أمرين مهمين، حتى نعرف نشأة الأخلاق، وهما:

١ــ الطوطم.

٢ــ الطبو.

أما الطوطم: فهو الحيوان المحترم، الذي لا يجوز قتله.

وأما الطبو: فهو الشيء المحرّم عند المتوحشين.

وهذان هما سببا ولادة المحرّمات، والمحرمات هي التي ولّدت الأخلاق.

المسلم: اشرح، من فضلك!

دارون:

إن نساء المتوحشين، ما كنّ يعرفن أن الرجل هو سبب الحمل في المرأة، فإذا مرّت المرأة الحبلى على ثعبان أو عظاية أو سنح لها طائر أو حيوان، اعتقدت أن هذا الحيوان هو سبب حملها وولادة الطفل. فإذا ولدت وشبّ ابنها، صار هذا الحيوان طوطماً له، لا يجوز أن يقتله أو يؤذيه، للصلة التي توهمت الأُم وجودها بينه وبين الطفل. وربما كان في ذلك أصل لتقديس بعض الحيوان بعد ذلك.

وهذه هي ولادة الطوطم.

المسلم: دعنا قبل أن تتكلم عن الطبو، أسألك عن شيء.

دارون: وما هو؟

المسلم: من أين تقول هذا؟ و لم كانت المرأة تعتقد أن الحيوان سبب حبلها، دون الرجل؟

دارون: إني لا أقول هذا القول، إلا لأني رأيت أن بعض الناس يحترمون بعض أصناف الحيوان. دون أن أعرف له سبباً آخر، فلابد أن يكون هو السبب.

المسلم: وهل هذا من العلم؟

إنه يشبه إلى حد بعيد، ما يُنقل:

من أن جماعة من المتوحشين ظفروا بجلد سلحفاة، ولما عجزوا عن فهم ما هو؟ رجعوا إلى رئيسهم، واستفسروا منه، فقال ــ بعد أن تأسف على قلة معرفتهم ــ : إنه أحد شيئين: إمّا ملفوفة ــ وهي طعام مطبوخ من ورق الكرم ملفوفاً بالأرز والدهن واللحم وشيء من السكر ــ أو حمام!

ثم استدل لذلك، بأنه يعرف كل شيء إلا هذين الشيئين!

فلا بد وأن يكون هذا الشيء الذي وجدوه، أحدهما.

والآن اشرح لنا الطبو!

دارون: الطبو.

وهي لفظة (بولينيزية) عممها العلماء على كل ما هو محرّم عند المتوحشين، وفكرة التحريم عند المتوحش تختلف عما نفهمه من هذه الكلمة، فمثلاً: زوجة الأب طبو لأولاده، أي يحرم عليهم أن ينظروا إليها، أو أن يتعاملوا معها، فإذا فعلوا ذلك صاروا هم طبواً، يحرّم على رجال القبيلة، أن ينظروا إليهم؛ أو يتعاملوا معهم. فمن ارتكب شيئاً محرّماً عند المتوحشين، صار نجساً يحرم على سائر أفراد القيلة النظر إليه. فمن ارتكب طبواً، صار هو نفسه طبواً.

ومن الطبو نشأت الأخلاق. إذ عرف الإنسان ما يجوز له أن يعمله، وما يجب عليه أن يتجنبه(١).

وهذا بنظري هو منشأ الأخلاق.

المسلم: فمن أين فهمت أيها الأُستاذ أصل الطبو؟

ثم كيف ربطته بالأخلاق؟

وهل كون الصدق حسناً، والكذب قبيحاً.

أو كون الأمانة فضيلة، والخيانة رذيلة.

مرتبط بالطبو؟

ولو فرضنا أن الطبو لم يكن، فهل العقل لم يكن يحكم بهذه الأمور؟!

دارون: أُفكر.

المسلم: فكّر.

ولكن أرجوك أن لا يكون جوابك من قبيل نظرياتك حول الأخلاق، والدين، واللغة، وما إليها.

١ ــ انظر (نظرية التطور وأصل الإنسان) لسلامة موسى.

الحضارة

المسلم: للحضارة معنىً واسع، فإنها تشمل:

الزراعة، الطبخ، اللباس، الآلة، الزواج، وغيرها.

فما اعتقادك في أصل حضارة الإنسان يا دارون؟

دارون:

الزراعة

فإن الإنسان، لبث ـــ بعد أن تحول عن القرد ـــ مئات الألوف من السنين يقتات على حشائش الأرض، لا يعرف الزراعة، وقد عرف الزراعة بواسطة دفن الأموات، فإنه كان إذا دفن ميتاً وضع بعض الأثمار معه حتى يأكلها، اعتقاداً منه بأنه يحتاج إلى الطعام بعد وفاته.

فكانت البذور التي في الأثمار تنمو، بل تنمو بسرعة لأنها تتغذى بسماد الجثة المدفونة، فكان هذا داعية إلى تنبهه إلى الزراعة.

المسلم: من أين لك هذا؟

دارون: هذه نظرية ارتأيها، وإلا فمن أين عرف الإنسان الزراعة؟!

المسلم: قيل لـــ(جحا): أين وسط الأرض؟ قال: حيث وقف حماري، وإلا فاذرع. قيل له: كم عدد كواكب السماء؟ قال: بعدد شعرات جسد حماري، وإلا فاحسب.

وهذا مثلك في قولك: وإلا فما هو السبب؟

وما المانع أن يكون الزرع بوحي من السماء، كما يقول الدين؟

ثم ما المانع من أن يكون اهتداء الإنسان إليه بواسطة ما رآه من نبات الأرض، فأخذ النبات ووضعه في محل آخر، فنبت هناك. ومن هنا كان عرفانه؟

دارون: أُفكر.

المسلم: فكّر.

ثم ما سبب الطبخ بنظرك؟

دارون:

الطبخ

فالإنسان القديم لم يكن يعرف النار، وكان يقتات الحشائش وما يصيده، ولا بد أن يكون الإنسان إنما رأى النار ـــ أول رؤيته ـــ في الغابات وقت القيظ، حين يجتمع الجفاف والحر، فإن النار تحدث في الغابات، في مثل هذه الأوقات.

هذا هو بِدء معرفة الإنسان بالنار.

أما كيفية استخراجها، فلم تعلم إلى الآن. لكني أظن أن الإنسان رأى خروج النار من بين حجرين، إذا وقع أحدهما على الآخر، فاتخذه وسيلة لقدح النار.

ولذا نرى أن جميع المتوحشين يعرفون كيفية قدحها بالزند. وهذا هو بِدء معرفة الناس بالنار، وأخذوا يطبخون.

أما كيف عرف الإنسان طبخ اللحم؟ فإنه يسهل إذا عرفنا من أين اعتاد الإنسان أكل اللحم، بعد أن كان يأكل النبات، حين كان قرداً.

وسبب هذا:

أن الأصل في أكل الإنسان اللحم: هو أنه أراد بذلك القوة فإن هذه العادة نشأت ـــ أولاً ـــ لرغبة الإنسان في الحصول على قوة الرجل المقتول أو الميت، فإنه كان يأكل قلبه أو دماغه أو عضواً آخر منه، كي يصير شجاعاً جريئاً، كالرجل المقتول، ثم تعدّاه إلى أكل الحيوان.

المسلم: من أين هذه الفلسفة الطويلة، في أصل النار، وأصل الطبخ، وأصل أكل الإنسان اللحم؟

دارون: هكذا سنح بخاطري. والذي يشهد بذلك عدم اعتياد بعض الناس أكل اللحم، وما يكثر عند المتوحشين من أكل القاتل بعض أعضاء المقتول.

المسلم: وأي ربط بين هذين وبين ما ذكر؟

نعم، الصحيح هو أنك سنح بخاطرك هذا، كما سنح بخاطرك من قبل أشياء وأشياء، نود أن نعرف الدليل عليها.

دارود: أُفكر.

المسلم: فكّر!

ثم ما سبب اللباس بنظرك؟

دارون:

اللباس

فالإنسان أول ما صار إنساناً، متطوراً عن القرد، كان جلده مكسواً بالشعر، و لم يخرج من شعره إلا بالتدريج، كما هي سنة التطور.

والعامل الجنسي لعب دوراً هاماً في سلخ الإنسان من شعره.

فإن المرأة التي كانت أقل شعراً، كانت أكثر عدداً من حيث رغبة الرجال إليها.

ثم كثر نسلها من هذه الجهة.

فزال الشعر من جسد الأولاد والأحفاد تدريجياً.

ثم لم يكن الإنسان يلبس شيئاً لأجل الوقاية، بل لأجل الزينة.

وذلك أن الرجل كان إذا قتل حيواناً، وضع فروته أو جلده على كتفه للفخر والتزين وإظهار البطولة.

ثم لما رآه يقيه من الحر والبرد، شرع يلبس الجلد.

ونافسه الآخرون في العمل، حتى صارت عادة.

ثم تطور اللباس إلى أن وصل إلى هذا الحد المعتاد اليوم.

المسلم: وهل يدل دليل على هذا التطور الذي ذكرت، أم أنك تقوله من عند نفسك؟

دارون: بل هذه نظرية، و لم يقم عليها دليل، إلا ما نراه من عري بعض المتوحشين، وتدرج اللباس عندنا من بسيط إلى جميل.

المسلم: فهل عري المتوحش دليل على أن الإنسان كان كذلك بهذه الفلسفة الوهمية؟

إن كلامك هذا يشبه كلام ذلك الرئيس البدوي، حيث عرض عليه أتباعه سكيناً مكسوراً كبيراً ـــ و لم يكن رأى قبل ذلك هكذا سكيناً، ولكنه كان رأى عند نجار منشاراً ـــ فلما استفسروا منه: ما هذا؟

فقال بعد فكر طويل: إن هذا منشار صغير، لم تنبت له ـــ بعد ـــ أسنان!

فمن أين لك أن تثبت هذا التطور الذي زعمت في اللباس؟

دارون: أُفكر.

المسلم: فكّر.

وهل لك نظرية حول الآلة؟

دارون: نعم.

الآلة

فقد تبدلت أحوال الإنسان بالنسبة إليها، ومرت بالإنسان إلى اليوم الحاضر أربعة عصور مختلفة:

١ـــ عصر البداوة.

٢ـــ عصر الحجر.

٣ـــ عصر البرونز.

٤ـــ عصر الحديد.

فقد مرت بالإنسان مئات الألوف من السنين، وهو لا يعرف الآلة إطلاقاً، ثم أخذ يعالج قتل الحيوان لصيده، وقلع الأشجار للتدفئة، بالأحجار والأصداف والقرون والخشب والعظم، وهذا هو العصر الحجري.

وبعد ذلك أخذ يصنع الآلة من البرونز.

إلى أن وصل إلى عصرنا الحاضر، الذي أخذ يصنع الآلة فيه من الحديد.

المسلم: وما دليلك على هذا؟

دارون: الدليل أمران:

١ـــ وجود هذه الآلات القديمة في بعض الحفريات، وعند جماعات من المتوحشين.

٢ـــ تداولها إلى الآن في بعض المدن.

المسلم: وهل ذلك دليل على هذا الترتيب المزعوم؟ إنا لا ننكر التطور في الجملة في بعض الأشياء، كما نراه بالنسبة إلى آلات العمل ووسائل النقل وما إليها. أما أن نظفر ببعض الحفريات فنعلل ما قبل التاريخ بأوهام فذلك ما يأباه العلم والمنطق، وإن مثلك أيها الأستاذ مثل من يقول:

إن الإنسان كان في الزمان القديم قبل مئات الألوف من السنين طويلاً طولاً مدهشاً، ثم صار أقل طولاً وأقل طولاً، حتى وصل إلى هذا الحد الذي نجده الآن، ثم يستدل لذلك بوجود الكواكب، والجبال، والبحار، وبعض العمارات الشاهقة، فيقول:

كان الإنسان طويلاً جداً، وفي ذلك العصر صنع الكواكب ووضعها في السماء، ثم صار أقصر وحينذاك صنع الجبال وحفر البحار. ثم بعد ذلك صار أقل طولاً، فبنى بعض العمارات الشاهقة كقلعة بعلبك ـــ مثلاً ـــ حتى وصل إلى حده الآن فجعل يبني البيوت المتواضعة.

فهل ترى هذا الكلام منطقياً أو علمياً؟ وهل ترى استدلاله بالكواكب والجبال وبوجود أشخاص طوال في المجتمع ما يثبت كلامه؟

وأي فرق بين مزاعمك وبين هذا الكلام؟

دارون: أُفكر.

المسلم: فكّر.

وما نظريتك في الزواج؟

دارون:

الزواج

لم يكن الإنسان القديم، بعد تحوله عن القرد، يعرف الزواج المتعارف، وإنما كان كل همه إفراغ شهوته الجنسية، ولذا كان كل رجل زوجاً لأي امرأة يتمكن منها وبالعكس، ومما زاد في هذه الفوضى أن الإنسان لم يكن مستقراً في مكان لأنه لم يعرف بعدُ الزراعة، ليرتبط بالأرض، فكان الإنسان في سير دائم طلباً للطعام.

وفي هذه المدة ظهرت عادة السبي، فإن بعض الذكور كانوا يجدون مشقة في الحصول على الأنثى فيخاطرون بالقتال ويخطفون فتاة أو صبية. وهذه العادة علّمت الإنسان الحرب.

وبعدما ارتبط الإنسان بالأرض بسبب الزراعة أخذ الزواج صورة أخرى. وكان من الشائع أن يستأثر رجل قوي بعدة نساء.

حتى انتهى المطاف إلى الزواج المعاصر الآن.

المسلم: ومن أين لك هذه النظرية في الزواج؟

دارون: لم أجد ذلك في تاريخ أو دين، وإنما له شواهد.

المسلم: ما هي هذه الشواهد؟

دارون:

١ـــ لا يزال بين الهمج الآن عادات تمارس في العرس، تدل على أن السبي هو أصل الزواج، فالزوج يتظاهر بخطف المرأة بين ولولة النساء وصراخ الفتاة.

٢ـــ من المتحضرين من يلقي الرز في وجوه الحاضرين ويحمل الزوجة، وذلك مما لا نتمكن من تفسيره إلا بأن يكون هذا العمل تقليداً لخطف العروس وكفاح الآخرين لمنعه، الذين كانا متداولين عند الإنسان الأول.

٣ـــ إن بعض الأمم تحرّم التزويج من العشيرة ـــ كالصينيين ـــ مما يدل على أن الإنسان الأول كان يعتبر السبي وسيلة إلى الزواج، ولا يمكن السبي من العشيرة.

٤ــ الصداق الذي يدفع لأهل المرأة لا يمكن تفسيره إلا بأنه كان فِدية عن المرأة المخطوفة، فاتّخذ عندنا هذه الصورة.

المسلم: هل عادة همجية وظريفة عند بعض الناس في الأعراس، وتحريم أمة الزواج من العشيرة، وتفسير مختلق للصداق، يبرر مزاعمك حول الزواج؟

وأي ربط بين دعواك، وهذه الأدلة؟

وهذا يقرب من أن يقول أحد: إن نثر الحلوى في العرس رمز تقليدي لنثر الشجاع المختطف للمرأة رؤوسَ المانعين عن خطفها، وإن الإطعام تقليد لما كان تفعله الحيوانات من أكل أجزاء من المقتولين في المعركة، وإن الشموع التي تضاء في محافل الأعراس بقايا من عادة الإنسان الأول الذي كان يضرب الناس ــ إذا أراد خطف الفتاة ــ بالعيدان فإن العود يشبه الشمع.. فهل تقول بهذه الحقائق العلمية التجريبية يا دارون؟

دارون: أُفكر.

المسلم: فكّر.. ولكن كان الأفضل أن تفكر قبل أن تطرح نظريتك في السوق.

وهل لك نظرية حول حواس الإنسان؟

دارون: نعم.

المسلم: وما هي؟

دارون:

الحواس

إني أرى أن الإنسان كان قبل ملايين السنين مختلفاً من حيث الحواس عن الإنسان اليوم، فقد كان يُبصر بجميع جسمه، ويسمع بجميع جسمه.

ويمشي على جميع جسمه، ويتذوق بجميع جسمه، ويشم بجميع جسمه، وهكذا.

وكان أضعف حاسة من الإنسان المعاصر.

ثم طرأ ــ بسبب التطور ــ فيه أمران:

١ــ تخصّص بعض أجزاء الجسم لبعض الأعمال: فتخصّصت العين للنظر، والأذن للسمع، واليد للبطش، والرِّجل للمشي، والفم للأكل، والأنف للشم، وهكذا.

٢ــ ضعف بعض الحواس، وقوة بعضها الأخر بحسب حاجته إلى بعضها أكثر من الحاجة إلى البعض الآخر، فمثلاً: بينما نرى حاسة البصر قوية، نجد حاسة الشم ضعيفة. حتى أن التطور في المستقبل ربما يسبب ذهاب حاسة الشم بالمرة، بينما يقوي حاسة العين ــ كما تقدم نقله ــ بالنسبة إلى الإنسان المستقبل.

المسلم: ومن أين تقول هذا؟ وهل لك دليل؟

دارون: هذه نظرية ارتأيتها، وما عليّ أن يقبل أحد أو لم يقبل.

المسلم: فكيف صار هذا التخصّص؟ هل فعله عاقل ذو شعور، أم جاهل؟

ومن هو ذلك العاقل الحكيم الذي فعل هذا؟

دارون: أُفكر!!